ثقافية

شخصيات العام ١٩٨٧

كلمات

وانت ماذا بقي في ذاكرتك ..؟

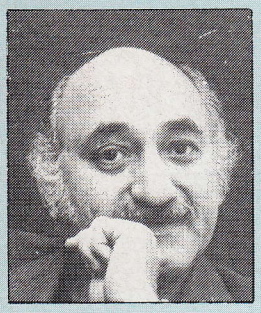

بقلم: بلند الحيدري

همست بذلك لنفسي وانا اصغي لاخوتي في «المجلة» وهم يشحذون ذاكراتهم لاستعادة العديد من الاحداث وابرز من توهجت اسماؤهم خلال عام ١٩٨٧.. وبينما كانت الاسماء والاحداث تتدفق من بين شفاههم بحماسة اخاذة وبينما كانت المناقشات تطول وتتواصل بشأن كل منها، كنت بدوري اسعى، وعلى غير نية واضحة المرمى، لأن استرجع نخبة من اسماء فنانين وادباء ومفكرين، استفزوا طموحي غير مرة لأن اكتب عنهم باثر مما وقعت اليه من عمل من اعمالهم الابداعية، حتى اذا ما تراخى الزمن ما بيني وبينها انصرفت عنها وانا على كثير امل في ان تتاح لي الفرصة للعودة اليها في يوم ما.

وانا اذ اعترف بان ما قرأت من نتاج ادبائنا ومفكرينا، وما شاهدت من معارض فنانينا ومسرحيات مسرحيينا، كان من القلة بمكان لا يخولني ان اتخذ منه موقعا لاصدار حكم نقدي مطلق او اقطع برأي في التفاضل ما بينه وبين اثر اخر تزامن معه، ولاني لست ناقدا، احترف الكيل بموازين دقيقة في التقويم - التقييم - واعداد الحجة لمن ينتصر له، ولأني لا اريد ان اكون منه في شيء، كي لا أحمل ذمتي فساد رأي فج ما توافرت له سبل في الدرس والتمحيص والتدقيق، سأكتفي هنا بتسجيل جملة من الانطباعات التي ترسبت في ذهني عن تلك الاعمال التي اعتبرها ابرز ما وقعت اليه خلال عام ١٩٨٧.

فكر:

الدكتور محمد عابد الجابري

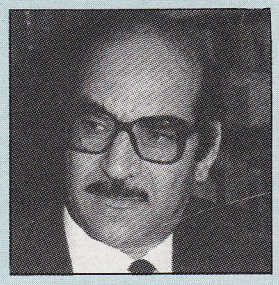

اذا كان المفكر المغربي الدكتور عبد الله العروي هو السباق بين المفكرين المغاربة الى طرح رؤية متميزة للنهوض بفكر عربي معاصر، عليه منذ البدء ان يقف ضد كل التيارات المستسلمة للخلاصات الفكرية المتوارثة، وذلك منذ اواسط الستينات، فان زميله في مثل هذا التوجه، الدكتور محمد عابد الجابري، تواصل معه وسعى مسعاه عبر العديد من مؤلفاته المهمة بدءا من كتابه «العصبية والدولة» ١٩٧١ ومرورا بكتابه «تكوين العقل العربي» ١٩٨٤ وانتهاء بكتابه «بنية العقل العربي» الذي صدر عن «مركز دراسات الوحدة العربية» مؤخرا.

وما كان لكتابه الاول من توجه لاكتشاف خصائص الفكر العربي وسبر غور ابرز مفكريه، اخذ حيزه المهم في «تكوين العقل العربي»، الذي بادر فيه الى وضع اسس منهجية لنقد العقل العربي. تقوم على تفتيت مميزاته واصوله وعلاقاته المتداخلة والمتعاضلة واثر بعضها ببعضها الاخر، ومن ثم للخروج بها الى ما يوسع لها افقا اكثر رحابة لقيام فكر جديد، نتخطى به ذلك الفكر التراثي الذي تأطر في زمن واحد لاسباب كثيرة جاء على ذكرها مفصلا ومحللا ومستنتجا، ومفترضا لنفسه رؤية منهجية ذات مسارب محدودة، وغالبا ما كانت تتمثل في ثلاثة مداخل، فللفكر العربي ثلاث بدايات تحدد مساره: ١ـ الفكر العربي قبل الاسلام ٢ـ الفكر العربي بعد الاسلام ٣ـ الفكر العربي بعد النهضة، ولعلوم هذا الفكر ثلاثة اطر تحصره في: ١ـ علوم بيانية ذات طبيعة عقلية ودينية ٢ـ علوم عرفانية تخضع لسلفية الهامية ٣ـ علوم برهانية ذات توجه فلسفي وتركيب علمي. وباثر من هاتين الثلاثيتين، يميز الدكتور الجابري العقل العربي بكونه واحدا من ثلاثة عقول لعبت دورها الحضاري في التاريخ بمفهوم الفكر النظري وهي: العقل العربي والعقل اليوناني والعقل الاوروبي.

واذا كان هذا الحصر الثلاثي قد مهد للدكتور الجابري ان ينهض باسلوبه الدراسي المتميز بدقته وجرأته وحسن معالجته للظواهر الحسية للمشاكل الفكرية وللانطلاق منها الى تحليل ماهياتها وخفاياها، فانه ولا شك قد افرد منها ما لا يخرج بمنهجه عن صراطه التحليلي والتكويني والبنيوي لحد ما، وما يتيح له ان يقيم من التناقضات شمولية توحدها في كونها تناقضات افرزها الصراع الذي عاشت فيها المجتمعات العربية ضمن حدود على جانب كبير من الصرامة المتوارثة في المفاهيم الاجتماعية والعقائدية، والسياسية والتي حالت دون تحوله الى صراع علمي عقلي يستقيم لنا منه مدخل الى الحضارة العالمية الحديثة القائمة على الفكر العلمي، فاختلاف العلماء العرب لم يذهب بهم الى ابعد من كون العقل وبنيته وعطائه تخضع لكل ما يعزز صلاح الدنيا وصلاح الدنيا لا يتأتى الا بصلاح العقيدة «.. وانما اختلف العلماء رضي الله عنهم في العقل والشرع، هل جاء مجيئا واحدا ام سبق العقل ثم تعقبه الشرع، فقالت طائفة جاء العقل والشرع مجيئا واحدا ولم يسبق احدهما صاحبه، وقالت طائفة اخرى، بل سبق العقل ثم تعقبه الشرع لأنه بكمال يستدل على صحة الشرع ـ ابو الحسن الماوردي ت ١٠٥٨م»، وبذلك صار الفقه علم الشرع والاساس الرئيسي للفكر العربي الاسلامي، والذي خص بتميزه به فما ماثله اي فكر آخر ولا استعان بغير اصوله التي نبعت من صميم عقيدته.

وفي «بنية العقل العربي» يعود بنا الدكتور محمد عابد الجابري الى كل منطلقاته الرئيسية في «نقد العقل العربي»، وبجهد اكثر تحديدا واعمق تحليلا وتعليلا وادق تبويبا لمداخله الى العقل العربي الذي تمثلها العقل البياني والعقل العرفاني والعقل البرهاني، والتي كان لها دورها في الايجاب في يوم ما، وصار لها دورها في السلب في غير ذلك اليوم.

ان طرحا فكريا يتسع لكل مقوماتنا الفكرية والحضارية، وعبر تاريخ طويل من التحولات الحادة، لا بد من ان يكون موضوعا لجدل نريده ان يحتدم ويمتد ويتسع وعلى مثل ما اتسع وامتد واحتدم نحب صدور مؤلفات «كانت» في نقد العقل وحكم العقل، ولا بد من ان يكون لنا موقفنا من بعض تعميماته. خاصة في مجال اثر اللغة العربية على الفكر، فاللغة كما اراها مجرد وسيلة وليست قالبا لصياغة الفكر، والوسيلة تتطور بقدر الحاجة الى تطويرها وان تخلف العقل العربي هو الذي ادى الى تخلفها، فاذا كانت اللغة قد استطاعت ان تتمثل خشونة البداوة فقد كان لها ان تمثلت ايضا انطلاقة الاسلام واستوعبت معطياته الحضارية، وفي كتاب الدكتور الجابري ذاته اعادة لصياغة لغوية تستوعب كل ما اراد ان يقول به، وفي غير جهد لمفكرينا وشعرائنا وادبائنا محاولات جادة تستبطن نية مبيتة على تجديد اللغة برؤية معاصرة ومن «داخل التراث نفسه وبوسائله الخاصة وامكانياته الذاتية اولا» كما يقول هو نفسه وضمن موقف «متحرر من سلطتها» كما يقول هو ايضا.

وحسبنا انه وضعنا امام اهم الاسئلة التي علينا ان نواجهها بجرأة للتحرر، واستعادة الذات العربية وبما يؤكد استقلالها عن مرجعيتين متنافستين ومتعارضتين هما المرجعية التراثية والمرجعية الاوربية المعاصرة «الى درجة اننا اصبحنا نحن العرب اليوم لا نستطيع الا نادرا، التفكير في اية قضية من قضايانا الا من داخل احدى المرجعيتين المذكورتين وفي كلتا الحالتين يكون فكرنا في واد وواقعنا في واد آخر، وبالتالي تغدو الذات، الذات كفكر وكفاعلية وسلوك، موزعة بين فكر مغترب في الماضي او عند الغير وبين سجن مظلم هو سجن الواقع الذي لا ينيره فكر ولا يحكمه عقل».

شعر:

سعدي يوسف

على كثرة ما تزدحم الذاكرة بقصائد واسماء شعراء، كان لها بريقها الاخاذ في الجدة والابداع، يظل اسم الشاعر سعدي يوسف اكثرها توهجا في ذاكرتي بديوانه الاخير «خذ ورد الثلج.. خذ القيروانية» الذي صدر عام ١٩٨٧ عن «دار الكلمة للنشر» ببيروت..

واذا كان من دأب بعض الشعراء المحدثين من اهلينا، البحث في الجدة في التنويع والخروج بتجاربهم عن وحدة التنوع التي تميزهم بشخصية متكاملة لها ملامحها الواضحة، فان سعدي يوسف يسعى دائما الى تأكيد شخصيته، بنهجه الهرمي في بناء القصيدة، وتعميق وعينا بخصوصية تجربته وطبيعة همومه، وقدرته الرائعة على الشد المحكم لكل ما هو عام بكل ما هو على درجة كبيرة من الخصوصية، وتميزه في اعتماد الجزئيات الصغيرة للايحاء بكلية التجربة الشعرية المنبثقة من خلالها والمتمكنة من نفسها بها، والمواءمة ما بين الصور الواضحة جدا بواقعيتها العينية، بين الدلالات الايهامية الغامضة التي توسع لها آفاقا مترامية، فتحس دائما معها، بانك على مقربة من المأخذ الذي يدنيك من استيعاب قصيدته، وانك في الوقت ذاته امام مجاهل ومفاوز

تتجاوز فيها المفردات حدود معرفتنا بها.

لقد اجترح اسلوبه من خلال القصيدة القصيرة التي يتحكم بها اول ووسط وآخر، كأي عمل درامي، فان طالت القصيدة ظلت تطول ضمن تلك المقاطع القصيرة التي توحي احداها بما يكملها في القصيدة التي ترادفت معها ويصير للشكل الهرمي ان يأخذ له مدى اوسع عبر صورة كبيرة تلتئم في الذهن وتفرض على المتلقي ان يسهم في بنائها بما تتداعى في ذهنه من صور عديدة تعمق الصلة ما بين المتلقي والشاعر، وكثيرا ما يكون للتساؤل باشكاله المختلفة ما يحكم هذه الصلة بينهما، فتخرج من القصيدة لتدخلها من جديد، وكأنك تولد فيها مرة ثانية ولتهبها من نفسك ابعادا اخرى من خلال هذا التعاطف.

مقطع من قصيدة
«خذ وردة الثلج خذ القيروانية»

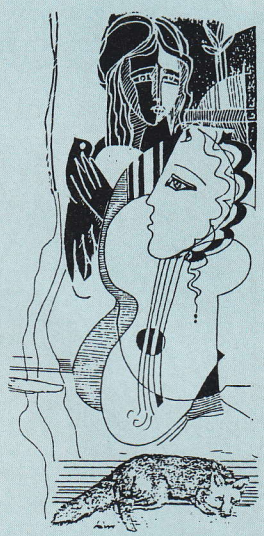

ولدي
هل اضعنا الطريق الى البيت..؟
كان لنا منزل وقد ولدت به انت
لا شك اني هرمت
وذاكرتي وهنت مثل عيني
لكنك الان ياولدي تتساءل عن بيتنا..؟
كيف ..؟
ماذا اقول اذن للضيوف الذين يجيئون..؟
ماذا اقول لمن يرسلون الرسائل..؟
ياولدي
قل لهم: انني اعرف الدرب
اخبرهمو بالذي اتذكر
بيتي على النهر، لا شك
بيت به نخلة
وحديقة ورد و آس
ونافورة للحشائش
ليمونتان وارجوحة انت تعرفها جيدا
ولدي
موقف الباص كان قريبا من البيت
قد كنت تقصده انت ياولدي حينما تقصد المدرسة
هل تذكرته..؟ .. هل تذكرتني..؟
فلتعنى بني...

هكذا يبدأ بسؤاله منا جميعا، ثم ينتقل الى نفسه ثم الى عمره ورسم ملامح هرمه ثم الى ابنه، وتظل صيغ التساؤل تكبر وتكبر ليختلط منطق القصيدة بمنطق تفكيرنا العام، وبذلك يرد الينا يقيننا بوحدة انسانيتنا العامة، وبذلك يتسرب الينا وعينا بمأساتنا لتذيب كل ظواهر اللغة السردية رغم شدة وضوحها، فالتعميمات تصطدم بالتساؤلات المتلاحقة التي لا تنفك تفتح كوى واسعة على كينونة كل واحد منا وحيث يولد الشعر من تلك العلاقة المزدوجة ما بين الشاعر والواقع المحيط به، او الكون كله، وهو اذ يوجز لغته الى اقصى حد، تجاوزا التفاصيل الزائدة، يفسح للغتنا الخاصة ان تتسلل اليها ولتكتمل بها تجربة الشاعر وكأنه بذلك كان يسعى الى توثيق العلاقة ما بين منطق اللغة الخارجية ومنطق اللغة الداخلية المتفجرة عنها عبر تداعياتنا وافكارنا وذكرياتنا، وهو اذ يبسطها الى اقصى حد، عبر المفردات المألوفة والصور المألوفة والاسئلة المألوفة، يدفع بها الى ان تتحول الى جملة من الآفاق الانطباعية حيث يستلف الشكل الكثير من قيمته من انعكاسات ظلاله التي يمتزج بها.

ان اهمية سعدي يوسف تتأتى من كونه احتفظ بخصوصية تجربته، وخصوصية قيمه وانه بالتالي يسعى جاهدا لأن يطور شعره من خلالهما بصدق وامانة وليرتبط مصير كل منهما بمدى ما يكن واحدهما للاخر من صدق وامانة ومعاناة.

رسم:

ضياء العزاوي

ولأنه لم يكن يبحث عن الشكل «كظاهرة تطفو على السطح ثم تهمد» فقد صار للشكل ان ينطلق من مضمونه الذي يبرر له وجوده، وبمرمى من قدرته على التعبير عن كوامن نفسية وتأملية وانفعالات حسية يستبطنها ذلك المضمون. او يستظهرها نص شعري لشاعر حديث او شاعر من شعراء المعلقات الذين كرس لهم مجموعة من مجموعاته الفنية والتي من خلالها افرد لكل لوحة من لوحاتها بعدين، بعدا يدنو بنا الى ادراك الابيات في خصائصها الادبية والايحائية، وبعدا يفترض مسافة امد طولا لادراك اللوحة في تكويناتها التشكيلية الكاملة، وليجتمع لنا عبر البعدين، في قراءة النص وفي الرؤية التشكيلية، ما يغني مضمون اللوحة من خلال هذا التزاوج ما بين الشعر والتشكيل الفني.

ورغم انعطافات الفنان ضياء العزاوي العديدة من نهج الى اخر، ومن فترة الى فترة، ورغم تباين

لوحة من لوحات «الف ليلة وليلة»

مواضيعه وتعدد اساليبه الادائية، فقد ظل محتفظا بشخصيته المتميزة، التي عرفت كيف تستقطب مفرداتها وكيف تعيد توظيفها وكيف تجاور بين الجزئيات التراثية والملامح الاسلامية والعربية والحروف والاشكال السومرية، حتى ليبدو وكأن زمنا واحدا يخترقها كلها ويتحول الى منظور جديد في العمل التشكيلي وضمن وحدة ذات بؤرة مركزية تدور حولها مقومات اللوحة وتتعاضل معها بمزيج من واقع شعري وواقع درامي، فان دل الاول على ترابط الاحداث وتزامنها، فان الثاني منهما يسعى الى تأكيد كثافة الاحساس بالحدث.

ومن خلال جهد على جانب كبير من الاهمية، وعبر ما تألفت معه اعماله السابقة من جزئيات ورموز واشارات والوان وشخوص، وعبر عقلانية ديكورية مصممة بمنتهى الدقة والاحكام، يخرج الينا ضياء العزاوي بمجموعة لوحات «الف ليلة وليلة»، حيث سعى لأول مرة ان يزاوج في اسلوبه الادائي ما بين الليثوغراف والطبع البارز وضمن تكوينات متطورة برؤية حديثة عن المنمنمات العربية.

انها مجموعة استلهامات ذاتية، تعمق الاحساس بالمناخ العام لألف ليلة وليلة، ولا تقوم شرحا لأي نص، ولا مرمى لتفسيره او تجسيده، على مثل ما هو الامر في «مقامات الحريري» للواسطي مثلا، فالعمل التشكيلي هنا مستقل بنفسه كل الاستقلال في اللوحة، ولا يلتقي بالنص الادبي الا من خلال خلفيات متعددة الابعاد، تحكم من اواصر التواصل بينهما عبر تداعيات ايهامية يستوحيها الفنان من النص بحرية منفلتة من اي قيد يقيده به.

واذا كانت هذه المجموعة التي عرضت لأول مرة في اميركا، تم عرض نموذج منها في معرض في عمان، هي مشروع لكتاب ضخم - كما نما الي - فانه بلا شك سيكون فاتحة جديدة في فننا التشكيلي، الحديث، واذا كان ذلك الكتاب سيكون فاتحة لمشروع - كما نما الي ايضا - اكبر في انتاج كتب اخرى منها: ملحمة «جلجامش» مع نص مترجم للانجليزية، ومنها: مختارات للمتنبي بالعربية والانجليزية، فلنا ان نقول بان ضياء العزاوي كان من بعض حلم الدكتور محمد عابد الجابري في ضرورة ان نتجاوز التساؤل عما يجب ان نأخذ من التراث وعما يجب ان نرفض منه، الى حيث يكون لنا ان نستلهمه وبكل ما يفجره برؤية حديثة معاصرة■